قضايا الضمير في اللغة الواضحة (دراسة تقابلية)

أ. حازم بن فهد بن محمد السند

الملخص:

بحثت هذه الورقة مجموعة من القضايا المتعلقة بالضمير، فعرضت لمفهوم الضمير في النحو العربي القديم وامتداد مفهومه عند بعض المحدثين، وأنواع الضمائر ووظائفها، وقابل ذلك مقارنة للضمير بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية من جوانب المفهوم، والوظائف، والمشكلات، وقد أظهرت المقارنة أن مفهوم الضمير في الإنجليزية أكثر اتساعًا وشمولًا، وأن اللغويين المحدثين مالوا إلى المفهوم الإنجليزي –كتمام حسان- لتحقيق هذه الشمولية، وهذا العرض ضروري كمقدمة لمعالجة الضمير في ما يعرف باللغة الواضحة Plain language، وهي توجه لغوي وَضَع معايير لجعل النصوص –أيا كان نوعها قانونية، أو طبية، أو تربوية- أكثر سهولة للفهم ووضوحا في العبارة، وقد اعتنت بالضمير كثيرًا، وعدته من أهم الخصائص التي تستحق أن تتوفر في النصوص لتحقيق غاية الوضوح، وهو ما يخالف فرضية مشتهرة تزعم أن استعمال الضمائر يصعب من النصوص ويعقدها، وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن أكثر الضمائر غموضا هي الغيبة، وأجرت عرضًا لغويا ونفسيا لهذا النوع لمعرفة أسباب غموضه، والخطأ في تلقيه، كما اقترحت حلولًا لاستعماله، والتخفيف من سمة الغموض التي قد تطرأ عليه. وعرض البحث لواقع استعمال الضمائر في الصياغة القانونية، لتظهر أن استعمالها كان محذورًا، ليتحول مع دعوات اللغة الواضحة إلى خاصية يحسن تفعيلها، وأخيرًا استعان البحث بأدوات اللغويات النفسية Psycholinguistics للنظر في طبيعة الضمير، ومراجعه، وكيفية استقبال المتلقي له، وهو ماتطلب النظر في بحوث تربوية وأخرى نفسية، لتخلص إلى نتائج تسهم في تأصيل الدعوة إلى استعمال الضمائر، وهي النتيجة الأهم، حيث خلص البحث إلى أن استعمال الضمائر يفيد في وضوح النص وسهولته للمتلقي ولا فرق بين العربية والإنجليزية في ذلك.

تعريف الضمير:

يعد الضمير في اللغة العربية من الأسماء المعرفة المبنية غير المشتقة، وهو ينقسم إلى نوعين متصل ومنفصل، فالمتصل مرتبط بالكلمة لا ينفصل عنها، ككاف المخاطب، وتاء المتكلم، أما الضمير المنفصل فيأتي مقام الاسم الظاهر، ومثاله : أنت، وهو...

والضمير هو اصطلاح البصريين، أما الكوفيون فيعرفونه بالكناية والمكنى، وقد عرفه المرادي صاحب شرح توضيح المسالك والمقاصد بأنه: " الموضوع لتعيين مسماه مشعرا بتكلمه أو خطابه أو غيبته"١ وعرفه ابن هشام بأنه "ما دل على متكلم كأنا أو مخاطب كأنت أو غائب كهو"٢ ، ويظهر التشابه في التعريفين، إلا أن تعريف المرادي أكثر تركيزا على وظيفة الضمير في أنه يستبدل بالاسم، وهذا الاستبدال يوحي بمرجعه الذي قد يأتي متكلما أو مخاطبا أو غائبًا، ومن أشمل التعريفات للضمير ما أورده ابن الحاجب في الكافية أن الضمير "ما وضع لمتكلّم، أو مخاطب، أو غائب تقدّم ذكره لفظا أو معنى أو حكما"٣. فربط الضمير بشيء سبق ذكره، في إحدى ثلاث حالات، لفظًا كـ أكرم زيد ضيفه، في عودة الهاء في ضيفه على زيد وهو متقدم لفظًا، والحال الثانية التقدم في المعنى، بأن يذكر المتقدم معنى لا لفظًا، كـ اعدلوا هو أقرب للتقوى، في العودة إلى معنى يفهم من اللفظ "اعدلوا" وهو العدل، الحال الثالثة التقدم حكمًا، وهو يختص بضمير الشأن والقصة.٤ ولكن هذا التعريف نص على عودة الضمير إلى شيء يسبقه، ومن الممكن أن يعترض على ذلك بأن هناك استعمالات لضمائر تعود على شيء متأخر عنها لفظًا، وليس متقدما عليها، كما في مثال "أكرم أخاه زيد" أو في ضمير الشأن "قل هو الله أحد"، وإيراده لتقدم الذكر "حكما" هو من باب الحفاظ على القاعدة التي تمنع عودة الضمير على شيء متأخر عنه، ولكن هذا في رأيي من باب التأويل، أما واقع استعمال اللغة ووصفها فإن الضمير يمكن أن يعود على شيء متأخر عنه، كما ظهر في الأمثلة السابقة.

ويلحظ أن تعريف الضمير في

العربية مشابه لمقابله في اللغة الإنجليزية، فيعرف قاموس كامبريدج Pronoun بأنه كلمة تستخدم عوضًا عن اسم غالبا ما تم الحديث عنه سابقًا، ومن أمثلته: she(هي) و Mine (ياء المتكلم للملكية).٥ ويعرف قاموس ميريام ويبستر Merriam-Webster الضمير بأنه: "أي مركب صغير من الكلمات في لغة ما، يستعمل كبدائل للأسماء أو شبه الجمل، ومرجعها معروف أو مفهوم من السياق"٦ هذان التعريفان اعتمدا على خاصيتين هما أن الضمير (١) عوض، و(٢) عن شيء معروف، وقد اعتنت التعريفات عموما بالمرجع، وأنه معرفة، لكنهم لم ينصوا على واقع الضمير نفسه من حيث تعريفه وتنكيره، وهذا ما تنبه إليه النحاة العرب، فقد عده سيبويه و الزجاجي وابن مالك وابن يعيش والأشموني وغيرهم أعرف المعارف، وفرقوا في مستوى المعرفة بين أنواع الضمائر نفسها وأكدوا تباينها٧.

وفي كتب اللغة الإنجليزية التخصصية اشتهر للضمير تعريف مختصر مماثل لمقابله في المؤلفات العربية، وهو "الضمير ما يقابل الاسم ويقوم مقامه"، إلا أن هذا التعريف يشوبه بعض المشكلات، في أن بعض الضمائر –كما تعترض بعض المراجع الإنجليزية– ليس بالضرورة أن يكون مقابلها اسم، بل يكون صفة أو غيرها. ٨ وعلى الرغم من بعض التحفظات إلا أن هذا التعريف يبقى المستعمل غالبا، لأنه أكثر اختصارًا، وأوضح في تركيزه على طبيعة الضمير ووظيفته.

ولنفرق بين أنواع الكلم المختلفة يمكن ملاحظة أن للضمير خاصية مميزة هي أنه لا يحمل دلالة معجمية في ذاته، بل يأخذ محتواه من مرجعه، ومثالهم: John has a red car and Jim has a blue one٩ في أن كلمة one ضمير أتى في هذا السياق ليدل على كلمة (سيارة) car. ويتبين هنا أن كلمة (one) اسم، لكنها في هذا السياق أتت ضميرًا؛ لأننا لو طبقنا تعريف الضمير عليها لوجدنا أنها مركب صغير من الكلمات، استعمل بديلا لكلمات سبق ذكرها، ويضاف إلى ذلك أنها لا تحمل دلالة في ذاتها (فكلمة One) من دون ربطها بالاسم السابق (سيارة car) يجعلها بلا معنى، فبذلك فهي لا تدل على شيء بذاتها بل بغيرها، فلا يصنف الضمير ظاهرة معجمية ولا قواعدية. وهذا الرأي يكثر عند باحثي اللغة الإنجليزية، أما في العربية فللضمائر مواضع إعرابية معروفة. وبالتأمل في هذه الملاحظة التي ذكرها (بات) في كتابه (Pronouns) يظهر أن وصفه لكلمة (one) بأنها لا تحمل دلالة معجمية حكم غير دقيق، فهو يدل على معنى معجمي موجود في المعاجم الإنجليزية، لكنه ربما قصد أن المعنى المعجمي لا يعكس معناها المقصود في تلك الجملة المعينة، وذلك السياق المحدد. وقد ورد عند الباحثين العرب عدُّ الضمير نوعا مستقلا عن الاسم، وأوردوا أصنافا مختلفة، ومنها العدد١٠، وهو ما يتماشى مع ما ذهب إليه بات، في ضربه لمثال (One).

وبالنظر إلى أنواع الضمائر، نجد أنها كثيرة ومتعددة، ومتداخلة، فهناك أنواع كالضمير الكمي والضمير الإشاري، وقد نسب بعض اللغويين الغربيين الضمائر الشخصية إلى الضمير الإشاري.١١ وهذا صحيح لأن لها تنوب عن أشياء تسبقها أو تليها، وتعود إليها دائمًا، وهذا من أبرز الفروقات بين أنواع الضمائر المختلفة في اللغة الإنجليزية بشكل خاص –وهو ما سأفصل فيه في الآتي–.

يظهر أن مفهوم الضمير في اللغة الإنجليزية أكثر شمولية من اللغة العربية، فهو يشمل الضمائر الشخصية Personal pronouns ، ضمائر الملكية possessive pronouns وأسماء الإشارة demonstrative pronouns والأسماء الموصولةrelative pronouns ، وضمائر الاستفهام Interrogative pronouns والأسماء غير المحددة Indefinite Pronouns، ونجد أن ما يقابل هذا التصنيف من الضمائر في اللغة العربية التالي: ضمائر المخاطب، وضمائر المتكلم وضمائر الغائب (ويحتويها جميعها مصطلح عام واحد هو الضمير).

وبتفصيل أوسع حول الضمائر في طبيعتها النحوية، فقد عرضت إليها كتب النحو على سبعة أنواع، ضمير مستتر، وضمير بارز، ومنفصل ومتصل، ومرفوع، ومنصوب ومجرور. وهذه الأقسام السبعة محدودة الألفاظ. كما يلحظ أن هذه الأنواع السبعة لا تتساوى في طبيعة تصنيفها، فهي تصنيفات مختلفة، منها النحوي، ومنها الإعرابي، إلا أن تلك الشمولية الظاهرة في اللغة الإنجليزية لا تعني أن عدد الضمائر فيها أكثر من اللغة العربية، فعلى سبيل المثال، فإن عدد الضمائر الشخصية personal pronouns في اللغة العربية أكبر من مقابلها في اللغة الإنجليزية، وهذا عائد إلى طبيعة كل لغة، فعدد هذا النوع من الضمائر في العربية ١٢ ضميرًا، تعبر عن الجنس، والعدد وجهة المتكلم، وفي

الإنجليزية فهي ٨ ضمائر والتي لا تفرق بين ضمير المتكلم والمخاطب في الجنس، وليست تحوي ضميرًا للمثنى.

وقد يكون هذا التنوع الكبير والشمولية الواسعة للضمير في اللغة الإنجليزية هو سبب الخلاف في وضع تعريف موحد، أو تعريف جامع متفق عليه.

هذا التوسع الكبير في محتوى الضمير في الإنجليزية، وتحديده بشكل أكثر حصرا في اللغة العربية ليس دليلا مطلقا على أن الضمير في العربية –في وظيفته وشكله النحوي– منحصر في الضمائر الشخصية، أو يستبعد اسم الإشارة والاسم الموصول وغيرها، كما يظهر في كتب النحو القديمة، غير أن المحدثين تنبهوا لهذا الأمر، وسعى حسان تمام إلى تقسيم الضمير تقسيما مقاربا لما هو عليه في اللغة الإنجليزية، بحيث تشمل الضمائر الشخصية واسم الموصول واسم الإشارة، وهو الأمر الذي ذهب إليه أيضًا هنري فليتش، و قد أكد محمود حجازي أن المعنى الحديث للضمائر يشمل هذه الأنواع الثلاثة.١٢ وربما ذهبوا هذا المذهب للتشابه الكبير في الخصائص البنيوية والوظيفية بين هذه الأنواع جميعها، وهو ما سيذكر بشيء من التفصيل لاحقًا.

الشبة والاختلاف في الضمائر في المفهوم الحديث:

هنا ننظر إلى أوجه الشبه والاختلاف كما بحثها علماء العربية بين هذه الأنواع، يجمع بينها كلها أنها معارف، فتتفق في التعريف العام للمعرفة في أن الاسم المعرف ما دل على محدد معين معروف. وهنا نلحظ أنه اكتسب المعرفة من طبيعته الإحالية إما لفظًا أو حكمًا، ففي حال اللفظ فعليه أن يعود إلى شيء مذكور، وكما ينص النحويون فهذا المذكور لا يصح أن يكون متأخرًا بل سابقًا، أما الإحالة الحكمية، فهي تعني أن الضمير يكتسب معرفته من إحالته على شيء (١) معروف من السياق أو (٢) ورد ذكره (متأخرًا) فيؤول تأويلًا على أنه سابق، وينقسم الضمير pronoun إلى ثلاثة أقسام، الأول: ذي صيغة معينة وجدت في اللغة للدلالة على معين، وتشمل الضمير الشخصي واسم الإشارة والاسم الموصول، والثاني ما تعارف عليه المتكلمون على اختصاصه بالدلالة على شيء معين، وهو العلم، أما الثالث فما تم تعريفه بوسيلة لغوية خاصة، إذا زالت هذه الوسيلة يعود للنكرة، وهو المعرف بأداة التعريف أل، والمعرف بالإضافة.

يلحظ أن الضمير ورد مع مجموعة واحدة في القسم الأول حيث تلاه الاسم الموصول واسم الإشارة، وهذا يستدعي التساؤل عن الشبه بين تعريف اسم الإشارة وتعريف الضمير، فاسم الإشارة ما وضع لمشار إليه، والاسم الموصول ما يدل على معين بواسطة جملة تذكر بعده، ومعلوم أن الضمير قد يذكر ما يدل عليه (أو ما ناب الضمير عنه) قبله أو كان مفهوما من السياق. فيجمع بينها كلها أنها تنوب عن شيء، وأنها لا تقوم بمعنى بذاتها، بل تفهم من السياق أو بذكر سابق (أو لاحق) لما نابت عنه. وهو الأمر الذي أشار إليه تمام حسان في أن الضمائر تنقسم إلى ثلاثة أقسام، ضمائر الشخص والإضافة والموصول، وسعى حسان إلى تحديد الفروقات بين الضمائر وغيرها من أقسام الكلم، وتبين له أنها تختلف عنها من حيث الصورة الإعرابية فهي مبنيات، ومن حيث الصيغة فلا تنتمي إلى أصول اشتقاقية، وكذلك من حيث الرتبة، والإلصاق والتضام والمسمى والتعليق. ويؤكد حسان على أن الضمائر استحقت أن تفرد بقسم خاص في إطار مباني التقسيم في الصرف العربي.١٣ أما بالنظر إلى ما ذهب إليه فليتش الذي أضاف الاستفهام إلى الضمائر، فثمة اسم استفهام متميز هو (أي) والذي يمكن إعرابه خلافا للضمائر المطرد أنها مبنية دائما، وهو الأمر الذي يحدث خللا في هذا التصنيف.

قد يقود هذا التفصيل إلى القول بأن أجدر ما يقابل مصطلح pronoun في العربية مصطلح المعرَّف أو المعرفة، إلا أن هذا المصطلح يشوبه شائبة، لأن مفهوم المعرفة في اللغة العربية أشمل، فهو يزيد على ما ورد في الضمير في الإنجليزية بظاهرتين هما: العلم والمعرف بالإضافة. وبهذا تبقى هذه الإشكالية غير محلولة.

وإلحاقا بما يتميز به الضمير في اللغة العربية فهو يأتي ملازما للفعل، والأفعال في هذه الحال قسمان، ما يلازم ضميرًا واحدا فقط، ك صعد، وظهر، والآخر يلحق به ضميران، الأول الملازم، والآخر يأتي بعده، ومثال ذلك: صافحتُكَ، وصافحتكما... ففي كليهما ضميران، الأول تاء المتكلم، والثاني كاف المخاطب. ويمكن وصف هذين النوعين من الأفعال بأنها الأفعال اللازمة (ما يلزم ضميرا واحدًا) والأفعال المتعدية (ما تقبل ضميرين).١٤

أنواع الضمائر في اللغة العربية:

مستتر: ما ليس له صورة منطوقة في اللفظ، بل يكون مفهومًا، ومثاله: أعملُ

الخير، تقدير الضمير (أنا).

بارز: ما له صورة منطوقة في اللفظ وهو نوعان: منفصل ومتصل:

- الضمير المنفصل: وهو يقابل ضمائر الفاعل في اللغة الإنجليزية: subject pronouns: وهو نوعان، ضمائر للرفع وضمائر للنصب:

ضمائر المنفصل للرفع:

- المتكلم first person : أنا للمفرد نحن للجمع. ويشترك فيها الجنسان المذكر والمؤنث.
- المخاطب second person : وهو خمسة ضمائر، تتأثر بالجنس وبالعدد.
  - أنتَ للمذكر أنتِ للمؤنث
  - أنتما للمثنى، المذكر أو المؤنث.
  - أنتم لجمع المذكر أنتن لجمع المؤنث.
- الغائب Third person: مشابهة للمخاطب، فتتأثر بالجنس وبالعدد.
  - هو للمذكر هي للمؤنث
  - هما للمثنى، المذكر أو المؤنث.
  - هم لجمع المذكر هن لجمع المؤنث.

ضمائر المنفصل للنصب:

- المتكلم:
  - إياي، للمذكر والمؤنث.
  - إيانا، لجمع المذكر والمؤنث.
- المخاطب:
  - إياكَ للمذكر المفرد إياكِ للمؤنث المفرد.
  - إياكما لمثنى المذكر أو المؤنث.
  - إياكم لجمع المذكر.
  - إياكن لجمع المؤنث.
- الغائب:
  - إياه للمذكر المفرد.
  - إياها للمؤنث المفرد.
  - إياهما للمثنى المذكر أو المؤنث.
  - إياهم لجمع المذكر.
  - إياهن لجمع المؤنث.

ضمائر المتصل: وهو ما لا يبتدأ به الكلام، ولا يقع بعد (إلا)، وهو ليس كلمة منفصلة، بل متصلة بما قبلها من اسم أو فعل أو حرف:

وهي نوعان: ضمير للرفع وضمير للنصب:

ضمائر المتصل للرفع:

- تاء الفاعل: مضمومة للمتكلم، ومفتوحة للمخاطب، ومكسورة للمخاطبة، ولا تتصل إلا بالفعل الماضي.
- نون النسوة: متصلة بالفعل الماضي والمضارع والأمر.
- (نا) الدالة على الفاعلين وتتصل بالفعل الماضي والمضارع والأمر.
- واو الجماعة: تتصل بالفعل الماضي والمضارع والأمر.
- ياء المخاطبة: تتصل بالفعل المضارع والأمر.
- ألف الاثنين: تتصل بالفعل المضارع والأمر.

ضمائر المتصل للنصب والجر:

- ياء المتكلم.
- كاف المخاطب.
- هاء الغائب.

وتكون كل واحدة منها في محل نصب إذا اتصلت بفعل أو بحرف ناسخ، وتكون في محل جر إذا اتصلت باسم أو بحرف جر.

وظائف الضمائر:

للضمير استعمالات متعددة، وخصائص يضيفها إلى الكلام في وظيفته اللغوية والاتصالية، ومن ذلك:

- تأكيد الفاعل للفعل: يجوز في اللغة العربية الإتيان بالفعل دون الفاعل في بعض الجمل، ولكن إضافة الفاعل (الضمير) يزيد في المعنى بأن يؤدي إلى تأكيد الفاعل، ومن أمثلة ذلك "هو لا يظهر متماسكا"، فقد يكتفى في الجملة بالفعل "لا يظهر متماسكا"، ولكن الإتيان بضمير الفصل الغائب (هو) يزيد من تأكيد الفاعل.
- تحديد المسند إليه في الجملة الاسمية: خاصة تلك الخالية من الفعل، وهو يرد غالبا في أول الجملة، كـ "هو طالب مجتهد".
- تحديد المسند في الجملة الاسمية: ويوصف بأن الضمير يستعمل في هذا الموضع بشكل يقل كثيرًا عن الحالة السابقة، ومثال ذلك: "هذا هو".
- استعماله كفاصل: وهو ما يعرف بضمير الفصل، بأن يأتي الضمير بين المبتدأ والخبر، أو بين الخبر والنعت أو الخبر والتابع، مثال ذلك: محمد هو الناجح. ووظيفته هنا أن يبين طبيعة العلاقة بين المبتدأ والخبر، وهو أيضًا عوض عن الإتيان بفعل تقديري كـ (يكون). كما يسهم ضمير الفصل في تحديد الخبر من النعت، كما في مثال: "العالم العامل بعلمه ينفع نفسه وأمته"، فيجوز أن يأتي "العامل بعلمه" خبرًا للعالم أو صفة، ولكن الإتيان بضمير الفصل بعد المبتدأ "العالم" يمنع أن يكون ما بعده صفة بل خبرا.١٥

- تتميز ضمائر المخاطب (أنت، أنتما، أنتم، أنتن، كاف الخطاب، You): بأنها تشعر المخاطب بأنه المقصود المباشر بالخطاب، وأنه ذو علاقة فيه، كما تجعل منه مستشعرا للمسؤولية تجاه ما يقال ومدركا لها. بل إن استخدام هذه الضمائر يفيد الكاتب؛ فهو يدفعه إلى تخيل القارئ (المستهدف) ويحول لهجة خطابه ونبرته إلى مستوى أكثر دفئا.١٦
- ضمير المتكلم (أنا، نحن، We): في الإشارة إلى الجهة المعنية، يجعلها أكثر قربا وحميمية.

ولابد من تحديد المقصود بهذه الضمائر مسبقًا في مكان المصطلحات المحددة. ١٧ويشير لوتشمان إلى أن استعمال الضمير (أنت) من أبرز الخصائص التي دعت إليها الكتابة الواضحة، ولكن هذا الضمير قد لا يفضل في بعض السياقات السلبية.١٨

- الاختصار والإيجاز: الضمير المستتر لا يذكر في الكلام، وبذلك يأتي النص قصيرًا، أما المتصل فإنه مرتبط بالكلمة السابقة له، وينزل منزلة الجزء من بنيتها. والضمير بشكل عام ينفي عن الأسلوب التكرار. وهناك حالات للضمير الغائب حين لا يصرح بمرجعه مطلقًا، والسبب في ذلك الاختصار، واليقين بمعرفة المرجع إذ دل عليه دليل ملفوظ أو ملحوظ، كما في قوله تعالى" والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما"، فلم يذكر مرجع ضمير في كان للدلالة عليه. بل يصل الأمر إلى أن يحذف الضمير لغرض صوتي، حينما تأتي الكسرة بديلا عنه، كما في الآية الكريمة "فبشر عبادِ"، فاكتفي بالكسرة عن الياء ١٩.
- الخفة اللفظية: الضمائر في طبيعتها قصيرة الطول، محدودة الألفاظ، وقد تستعمل (هو) بديلا عن اسم طويل، وهو ما يعطي الجملة خفة، وقصرًا.
- الربط أو الإحالة: من أهم وظائف الضمائر الربط في الجمل، فالربط بالضمير يتيح إعطاء معاني متعددة لجملة قصيرة، كما في المثال: "ذلك الكتاب لاريب فيه" فذلك (على اعتبارها ضميرًا إشاريا) أحالت إلى فاتحة الكتاب، ومثال آخر: رأيت الطالب يدرس، فثمة ضمير مستتر بعد الفعل "يدرس" تقدير "هو"، ولو لم يقدر هذا الضمير لكان من الضرورة إعادة كلمة الطالب مرة أخرى (رأيت الطالب، الطالب يدرس) بينما أنجز الضمير المقدر الربط بين أطراف الجملة بيسر واختصار "رأيت الطالب يدرس (هو)".
- التفخيم والتعظيم: ويكثر في الضمير الغائب حين يبتدأ به، فيكون غير حاضر في الذهن المقصود منه، تشويقًا إليه، وتعظيما لمقامه، كما في الآية الكريمة "قل هو الله أحد". وقد استعمل العرب الضمير في مخاطباتهم ورسائلهم، وراعوا قواعد عامة وضعوها لها، ودائما ما تنطلق من طبيعة العلاقة بين المرسِل والمرسّل إليه، فقد يستعملون الضمير الجمع في حديثهم إلى مفرد، وهذا استعمال مخصوص يؤدي وظيفة تواصلية واجتماعية معروفة، تعني التعظيم والاحترام. وهو مما ورد في القرآن الكريم، فثمة آيات تأتي فيها ضمائر جمع ومقصودها مفرد، كما في (إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون)، فـ"نحن" و"إنّا" تعود على الذات الإلهية المقدسة.
- المرونة: من أوجه المرونة في استعمال الضمير، أنه يمكن بدء الجملة بمتكلم عن غائب معين، ويستعمل الضمائر التي تطابقه، ثم يخالف بينها وبينه بعد ذلك، ورغم ذلك إلا أن السامع لا يلتبس عليه المقصود، فيكون في هذا التخالف نوعًا من المرونة في بدء الحديث، والانتقال منه إلى جزء آخر. ومثال ذلك: "وكم من قرية أهلكناها، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون". فبدأ بالحديث عن القرية ذاتها، ثم عن أهلها.
- الالتفات: وهو العدول عن مجرى أسلوب أخذ فيه إلى مجرى أسلوب غيره، ويفيد تجديد انتباه السامع ونفي الملل عنه، كالانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم.
- الاختصاص: كما في مثال ضمير الفصل، كما في الآية الكريمة " وإنا لنحن الصافون" ويفيد حينها الحصر والقصر. وقوله تعالى "وأولئك هم المفلحون" فيفيد ضمير الفصل توكيد الخبر واختصاص صاحبه به.
- التوضيح ورفع اللبس: الضمير يأتي نصًا في معناه، ولا يحتمل شيئا غيره، فضمير المتكلم أو المخاطب صاحبه حاضر شاهد، وضمير الغائب صاحبه مذكور في الأسلوب أو يفهم بطرقة أخرى، وهذا يجعله كالحاضر الشاهد. وهو بذلك يفوق الأسماء ذاتها، فيكنى عن الظاهر، لأنه يخلفها، ويستغنى به عنها.٢٠

- كما يدل على وظائف أخرى كالمدح، أوالذم، أو القصر، أوبيان نوع المفردة.

حالات خاصة للضمير في العربية:

وقد ورد في كتب الكتّاب والكتابة وآدابها توجيهات تتعلق بالضمائر، منها ما يدعو إلى تجنب استعمالها في مواضع مخصوصة، كأن يكون الخطاب من أمير المؤمنين، فلا يشار إليه بالضمير؛ احتراما وتعظيما لمقامه، كأن يقول "فعل أمير المؤمنين كذا، فامتثل ما أمر به أمير المؤمنين"٢١ إلا أن هذا قد يكون مرتبطا بسياق معين، لأنه الضمير قابل للاستعمال بشتى صوره، لأداء وظائف مختلفة، وكما بينت سابقًا، فإن قد يستعمل للتعظيم، كما يستعمل للتحقير، وهذا في رأيي خاضع لتقدير المتحدث وظروفه.

الضمائر في الكتابات القانونية واللغة الواضحة:

تتميز الكتابة القانونية التقليدية في اللغة الإنجليزية بتجنب استعمال الضمائر بشكل عام، فتستبدل ضمائر المتكلم أو المخاطب والغائب بأسماء أو صفات، كـ The said ويقصد بهذا التوجه جعل النصوص القانونية أكثر دقة وإغلاقا وبعيدة عن الذاتية أو التشخيص. وقد عرض سولان في كتابه لغة القضاة إلى وصف الضمائر بأنها فاسدة دلاليًا، وأنها لا تحمل معلومات كافية بذاتها لتعبر عن الأشياء التي وضعت لأجلها، وأنها مصدر طبيعي للتوهم.

إلا أن بحوث الكتابة الحديثة واللغة الواضحة٢٢، والتي تأسست بحملات ضد التعقيد اللغوي في المستندات القانونية، وكانت تستهدف تبسيط اللغة القانونية –بشكل خاص– وإيصالها إلى المستهدفين بطريقة يسيرة، تمكنهم من فهمها، فقد سعت في مجمل اقتراحاتها اللغوية إلى التغيير من استعمال الضمائر، معتمدة في ذلك على عناصر مختلفة في تقييم الاستيعاب لدى القراء، ومستعينة بأدوات التحليل اللغوية والنفسية والتربوية، ومن تلك التغييرات المقترحة استخدام الضمائر بشتى أنواعها، وهو ما جعل منها ظاهرة حاضرة، وشأنًا أسلوبيًا مقبولا، بل وشائعا في الصياغة التوجيهية والقانونية، ولكن لابد من ملاحظة أمرين، الأول الحذر من الإفراط في استعمال الضمائر أو وضعها في غير مواضعها الصحيحة، ففي موضع التحذير الرسمي من الوقوع في تجاوز أو خطأ، قد يكون استعمال الضمائر (أنت، نحن) أقل تأثيرا في إيصال التحذير، لأنها تحوي نوعا من الألفة والتقرب. الثاني، استعمال الضمائر بشكل غير واعٍ، فلا تعبر حينها عن المضمون بشكل كامل وسليم.٢٣

مشكلة الضمائر:

استعمال الضمير من الأمور التي دعت إليها حركة اللغة الواضحة، إلا أن كثيرًا من المعترضين عليها يرون في الضمير إشكالا يتمثل في اللبس في مرجعه، فإذا كان المرجع غير واضح أو موهما فإن الضمير يؤدي إلى اللبس، كما في المثال التالي:

"زيد أخبر عليًا، أن المدير طلبه لحاجة ملحة!" فالضمير (هاء الغيبة) في الفعل (طلبه) يحتمل أن يعود على زيد أو على علي، وهذا أكثر إشكال يستشهد به المعترضون على استعمال الضمير.

واللافت هنا أن هذا الإشكال يكثر وروده في ضمير الغائب، بخلاف المتكلم والمخاطب، ولذلك فالنحاة عدوا هذين الضميرين الأعلى في التعريف، ولم يساووا الغائب بهما ، وهذا مما يؤكده باحثو اللغة الإنجليزية، فهم يرون أن ضمائر الغائب قد تشكل في مراجعها كثيرًا.٢٤

وقد طرح باحثو اللغة الواضحة أساليب لتجنب هذا اللبس، منها ما يلي:

- إعادة صياغة الجملة، كما في: زيد أخبر عليًا، أن المدير طلب زيدا لحاجة ملحة.
  زيد أخبر عليًا، أن المدير طلب عليا لحاجة ملحة.
- وضع المرجع بين قوسين: زيد أخبر عليًا، أن المدير طلبه (أي زيدا) لحاجة ملحة.
- استخدام الحديث المباشر: زيد أخبر عليًا: " المدير طلبني لحاجة ملحة".

ولكن ثمة مشكلة أخرى تتعلق ببعض مؤلفي كتب الكتابة الوظيفية في مختلف الحقول، حيث يدعو بعضهم إلى تجنب استعمال الضمير، موافقًا بذلك التوجه التقليدي، والذي يعارض استعمال الضمائر لأسباب ثلاثة:

- كونها يكثر فيها الإيهام واللبس في المرجع.
- تخالف الأسلوب الرسمي.
- استعمالها يقلل من موضوعية الخطاب، ويؤدي إلى الشخصنة.

إلا أن هذه الادعاءات ليس دقيقًة اليوم، فهناك تغير كبير في أساليب التواصل، وطرق الخطاب في الخطابات التجارية والقانونية، فأصبح من المقبول استعمال الضمائر الشخصية كـ أنت، أنا، نحن... وهذا ما تثبته أهم كتب اللغة الواضحة، وكثير من كتب الكتابة وأساليبها وفنونها.

أما ما يتعلق بالموضوعية فهو أمر نسبي، ولا بأس من إضافة الضمائر في خطاب الجمهور، فاستعمالها يعد نوعا من الصداقة User Friendly والتي تعبر عن المسافة الاجتماعية بين المرسل والمستقبل، فكلما استعملت الضمائر قربت تلك المسافة، وهو ما يحقق استجابة جيدة للرسالة، وتفاعلًا كبيرا، وقبولا.

والسبب الأول، المتعلق بالمرجع هو الأقوى في حجيته، ولكن كما بينت في هذا البحث في موضع سابق فهو يكثر في ضمائر الغيبة، وهناك طرق لتجليتها وإبعاد اللبس عنها.

الضمائر في اللغويات النفسية والإداركية:

عالج باحثو اللسانيات النفسية أمورًا عديدة تتعلق بالضمائر، وخاصة إنتاجها وفهمها وما يكتنفها من إجراءات وخطوات. ومن القضايا التي اعتنوا بها كثيرا كيف يتعامل القارئ (أو المتحدث) مع الجملة التي تحتوي ضميرًا pronoun أو إحالة anaphor،٢٥ من حيث تتبع مرجع الضمير أو المرجع referent، خاصة في الجمل التي يأتي فيها مرجعان اثنان أو أكثر لضمير واحد، أو عدة ضمائر. وتعرف هذه العملية بأنها Co-reference resolution. هناك إجراءان لفهم طبيعة المراجع وتحديدها وهما: المرجع الإحالي anaphoric reference، والاستنباطي inference.

لتحديد المرجع الإحالي لابد من التنبه لعدد من الخصائص، منها:

- ما يعرف بتركيز الخطاب discourse focus، ويقصد به أن المرجع referent يكون أكثر إتاحة وتوافرًا حينما يكون موضع الاهتمام والتركيز، ومن ذلك التأخير Recency، فالمرجع القريب من أداة الإحالة يصبح محل التركيز في الجملة.
- ومما يساعد على التركيز أيضًا الشخصية الأساسية، كما يحدث في الرواية أو الخبر الصحفي، لأن هذه الشخصية هي أكثر احتمال لأن تكون مرجعًا للإحالات. كما بينت دراسات أن الشخصيات التي تعرض باسمها الصريح تكون أعلق في الذهن وأقرب إلى أن تكون مرجعا من تلك التي لا تذكر صريحة، كأن ترد شخصيتان الأولى باسمها الصريح والثانية موصوفة.
- كما يزيد التركيز في انتخاب المرجع موضعه في الجملة، فكلما أتى أولا كان أكثر حضورًا، وكذلك الحال في مجيئه فاعلًا، لأن الفاعل يعد أكثر تركيزًا. وهذا أيضا مرتبط بالترتيب النحوي لعناصر الجملة.٢٦ وهذا العنصر يدخل ضمن ما يسميه اللسانيون النفسيون بالحضور في الذاكرة: ويقصد به أن ثمة مواضع معينة للكلمات في الجملة تسهم في رسوخها في الذاكرة، وتكون أول ما يستحضره الذهن حين يرد عليه ضمير لاحق، وهنا –كما في الإنجليزية– فإن الفاعل كونه الأول في الورود يحظى بالحضور الذهني أكثر. وهذا مشابه لما قد عرض له العرب بقولهم إن الضمير يعود إلى الأقرب.
- بعض الضمائر تسهم في تحديد مرجعها: وهذه الضمائر هي الفرق بين الانعكاسية reflexive والعادية، خاصة عندما تتعدد الإحالات والمراجع في الجملة، لأن الضمير الانعكاسي لابد أن يحيل إلى اسم يقع في الجملة ذاتها أو في حواشيها، ومثال ذلك:

أ- هند قالت إن زينب ضربت نفسها.

ب- هند قالت إن زينب ضربتها.

ففي الجملة (أ) الضمير الانعكاسي في (نفسها) لابد أن يعود إلى اسم مذكور في الجملة ذاتها (local antecedent) وهو هنا الأقرب (زينب)، بينما الضمير العادي (وهو هنا الإحالة) في الجملة الثانية (ضربتها) يعود إلى (هند) لأن هذا الضمير يعود إلى اسم خارج عن الجملة التي ورد فيها، وقد يعود الضمير هنا إلى شخص آخر غير هند أيضًا. وبهذا يتبين أن الضمائر الاعتيادية بشكل عام لا تختص عوائدها بمواضع إعرابية معينة، إلا في حالة الضمائر الانعكاسية وحسب.٢٧ وهو ما عملت عليه نظرية Binding theory التي اشتغل عليها تشومسكي كثيرا.٢٨ وهذه الأحكام التي توصلت إليها هذه النظرية ليست محل إجماع بين الباحثين.

- الجنس والعدد أو صفات الإنسانية: وتعني أن هذه الخصائص تسهم في بيان الضمير وعائده، كما تسهم في غموضه وتعقيده، فالجنس في جملة تحمل ضميرا قد تكون أكثر وضوحًا حينما يختلف الجنسان، كما في:
  - هند أخبرت زيدًا إنه ذكي.
  - هند أخبرت زيدًا إنها سعيدة.

فيتضح بسهولة مرجع الضمائر بالنظر إلى اختلاف الجنسين، ولأنها لا يمكن أن تعود الهاء (إنه) إلى هند، مع وجود إضافة أخرى في اللغة العربية

–تميزها عن اللغة الإنجليزية– وهي أن الصفة توافق موصوفها في الجنس، وهو ما يجعل الجملة أكثر وضوحًا.

أما العدد والصفات الإنسانية فهي مما يمكن المرء من تمييز عائد الضمير بناء على معرفته بخصائصها، ومثال ذلك:

"علَّف الراعي بعيره، وقد بدا عليه الضجر".

فالضمير في (عليه) لابد أن يعود على الراعي، لأن صفة الضجر صفة إنسانية، لا يشترك فيها البعير –على سبيل المثال–، ولذلك فإن هذه الصفة المخصوصة تسهم في تجلية عائد الضمير بسهولة.

- جوانب دلالية وتداولية: معرفة الإنسان بالمحيط حوله تساعده في فهم الجمل التي يقع فيها ضمير مشكل، أو تزيد من إشكاله، ومن ذلك، ما يعتاده المرء في بيئته، ويفسر الكلام الذي يسمعه وفقا لثقافته ومعرفته كما في شأن العلاقات الاجتماعية، في المثال التالي:

- خالد أخبر إيادًا إنه يرغب في الزواج سريعًا.

فإن الضمير في (إنه) يعود إلى خالد، مع أن كلا الاسمين صالح لأن يكون عائدا للضمير، لكن الإخبار بالرغبة وهي شيء داخلي لا يصح أن يكون صادرًا من شخص آخر غير ذلك الذي رغب. ٢٩

وهناك عنصر آخر لتحديد المرجع وهو ما يعرف بالاستنباط inference ويعني أن للجملة ذاكرة تتطلب استنتاجا أو استنباطا يسهم في الربط بين أجزاء الجملة، خاصة في الإحالة والمرجع. وهو نوعان: الاستنباط التجسيري bridging inference: ويقصد به الربط بين الأفكار في الجملة، فبحسب القدرة على إيجاد تلك العلائق بين الإحالة والمراجع بسرعة فإن الجملة تكون أقل تعقيدا والمراجع فيها أكثر مباشرة ووضوحا، وكلما اضطر القارئ إلى إيجاد استنباطات أكثر فهذه علامة على صعوبة المراجع وتحليلها. وتفيد الاستنباطات بشكل كبير في تحديد مراجع الأسماء المعرفة noun phrases، ومثال ذلك كلمة "وعاء" container، في:

- لدي وعاء لحفظ الفاكهة.
- لدي وعاء لحفظ الغاز.

فالفرق بين الجملتين هنا واضح في صفة الوعاء ونوعه، فالأول مفتوح، والثاني يجب ان يكون مغلقا.

والاستنتاج نوعان، النوع الأول: رجعي وهو التجسيري backward inference التقليدي المعروف، والذي يحتاج فيه القارئ إلى استعراض المعلومات السابقة في الخطاب لتحقيق الانسجام مع الأداة الحالية.

النوع الثاني: التقدمي أو الإطنابي forward\elaborative، هو استنباط يقع مباشرة بعد أي نص ، ولا يشترط فيه أن يقوم بدور كبير لتحقيق الانسجام.٣٠

واعتمدت الدراسات في حل مشكلة المرجع للإحالة على طرائق مختلفة، تتبع فيها كيفية فهم القارئ للضمائر والبحث عن مرجعها والوقت التي يبذله في سبيل تحقيق ذلك، ومن تلك الطرائق المستعملة لإنجاز هذا التتبع قياس وقت القراءة Reading time والتي تحاول قياس وقت القراءة لجمل معينة –كلما زادت المدة دلت على صعوبة فيها– ويُتوصل إلى معرفة ذلك بوسيلتين، القراءة المعتمدة على الذات self–paced والثانية تتبع العين Eye–tracking. كما تعتمد بعض البحوث على منهجية بحثية لقياس الاستيعاب والفهم تُعرف بالتلقين الدلالي Semantic priming٣١. وهناك مناهج أخرى تستعمل لقياس صعوبة المراجع وسرعة القراءة سوى هذه الواردة سابقًا وقد عرض لها Nicol and Swinney بتفصيل.

الخاتمة:

انتهى هذا البحث إلى أن مفهوم الضمير مختلف بين العربية والإنجليزية، إلا في حالة تبني الرؤية الإنجليزية التي تعد الضمير مفهومًا عامًا يشمل عددًا من الأدوات كالاستفهام، والوصل، وغيرها، كما خلص البحث إلى أن ضمير الغيبة هو الأكثر إشكالًا، ولكن هناك طرائق لتجليته، تعتمد على جوانب لغوية ونفسية، وهو ماعرضت له الدراسات اللسانية النفسية، التي أقرت بصعوبة تحديد المرجع للضمير الغائب، ولكنها اقترحت في تحليلها لهذه المشكلة عددًا من الحلول المعتمدة على جوانب لغوية بحتة، وأخرى تداولية، ومنطقية. ويجدر بالباحث تقديم بعض المقترحات ومن ذلك: عمل المزيد من البحوث المقارنة بين العربية والإنجليزية، بالإضافة إلى التركيز على الدراسات اللسانية النفسية بمايتعلق بالضمير، خاصة أن مثل هذه الدراسات ستخرج بنتائج مميزة يكون لها أثر في الدراسات اللسانية المنشورة في هذا الميدان.

المراجع:

ابن-الحاجب، جمال الدين بن عثمان بن عمر. ٢٠١٠. الكافية في علم النحو (مكتبة الآداب: القاهرة).

ابن-هشام، عبدالله بن يوسف. ١٣٨٣. شرح قطر الندى وبل الصدى (القاهرة).

الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى. ١٣٤١. أدب الكتاب (المطبعة السلفية: مصر).

المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ. ٢٠٠٨. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (دار الفكر العربي).

بكر، محمد صلاح الدين. ١٩٨٦. 'الوظائف اللغوية للزوائد'، سلسلة دراسات عربية وإسلامية - مركز اللغات الأجنبية والترجمة بجامعة القاهرة - مصر، ٦: ١١٧-٣٦.

حجازي، محمود. علم اللغة العربية (دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع).

حسان، تمام. ٢٠٠٦. اللغة العربية معناها ومبناها (عالم الكتب: القاهرة).

دندوقة، فوزية،. ٢٠١٠. ضمائر العربية : المفهوم و الوظيفة.

شمس-الدين، جلال. ١٩٩٥. الأنماط الشكلية لكلام العرب (مؤسسة الثقافة الجامعية: الإسكندرية).

عبدالله، طارق نجم. ١٩٩١. 'الضمير نحن : دراسة لغوية في بناء الممثل الصريح'، اللسان العربى: ٨١-٩١.

محمد، السيد أحمد علي. ١٩٩٦. 'ضمير الغائب بين التعريف و التنكير'، سلسلة دراسات عربية وإسلامية - مركز اللغات الأجنبية والترجمة بجامعة القاهرة: ١٧٨-٩٧.

ناصف، علي النجدي. ١٩٦٦. 'فلسفة الضمير'، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - مصر: ٢٣-٣١.

Bhat، D.N.S. ٢٠٠٧. Pronouns (OUP Oxford).

Butt، Peter، and Richard Castle. ٢٠٠٦. Modern legal drafting : a guide to using clearer language (Cambridge University Press: Cambridge ; New York).

"Communicate Clearly. A Guide to Plain English." In. December ٢٠١٣. edited by ٢٦TEN. Australia: ٢٦TEN.

"Federal Plain Language Guidelines." In. March ٢٠١١. www.Plainlanguage.gov.

FernÃ¡ndez، E.M.، and H.S. Cairns. ٢٠١٠. Fundamentals of Psycholinguistics (Wiley).

Kohl، J.R. ٢٠٠٨. The Global English Style Guide: Writing Clear، Translatable Documentation for a Global Market (SAS Institute).

Lauchman، Richard. ٢٠٠٨. "Plain language: A handbook for writers in the US Federal Government." In.: Rockville، MD: Lauchman Group.

Nicol، Janet L.، and David A. Swinney. ٢٠٠٨. 'The Psycholinguistics of Anaphora.' in، Anaphora (Blackwell Publishing Ltd).

Radford، A. ٢٠٠٩. An Introduction to English Sentence Structure (Cambridge University Press).

Runner، Jeffrey T.، Rachel S. Sussman، and Michael K. Tanenhaus. ٢٠٠٦. 'Processing Reflexives and Pronouns in Picture Noun Phrase.' Cognitive Science، ٢٤١-١٩٣ :٣٠.

الهوامش:

١ (المرادي ٢٠٠٨: ٣٥٩/١)

٢ (ابن-هشام ١٣٨٣: ٩٤)

٣ (ابن-الحاجب ٢٠١٠: ٣٢)

٤ (عبدالله ١٩٩١: ٨١)

٥ http://dictionary.cambridge.org/dictionary/english-arabic/pronoun

٦ http://www.merriam-webster.com/dictionary/pronoun

٧ (محمد ١٩٩٦)

٨ (Bhat ٢٠٠٧: ٢)

وهذا ينطبق على المفهوم الواسع للضمائر الذي يشمل أسماء الإشارة والأسماء الموصولة...

٩ الترجمة: جون يملك سيارة حمراء، و جيم يملك أخرى زرقاء. One تعني في هذا السياق كلمة "أخرى".

١٠ (دندوقة ٢٠١٠)

١١ (Radford ٢٠٠٩: ٤)

١٢ (حجازي: ٢٠٣)

١٣ (حسان ٢٠٠٦)

١٤ (شمس-الدين ١٩٩٥: ١٣٢)

١٥ (بكر ١٩٨٦: ١٢٣)

١٦ ("Communicate Clearly. A Guide to Plain English" December ٢٠١٣: ١١)

١٧ ("Federal Plain Language Guidelines" March ٢٠١١: ٣٠)

١٨ (Lauchman ٢٠٠٨: ٤٢)

١٩ (ناصف ١٩٦٦: ٢٤)

٢٠ (ناصف ١٩٦٦: ٢٣-٢٤)

٢١ (الصولي ١٣٤١: ١٥٠)

٢٢ تعرف اللغة الواضحة بأنها " تتسم بالتعبير المباشر، مع استخدام أي كم من الكلمات وفقًا للحاجة إليها، وهذه اللغة تتجنب الغموض، والكلمات المزخرفة، والجمل المعقدة في تركيبها، وليست كمحادثة الأطفال، أو مجرد نسخة مبسطة من اللغة الإنجليزية، ويضع الكاتبون بهذه الطريقة الجمهور المستهدف نصب أعينهم وجوهر رسالتهم، مع التأكيد على فهمهم لها".

٢٣ (Butt and Castle ٢٠٠٦: ٢٠٨-٠٩)

٢٤ (Kohl ٢٠٠٨: ٩٨)

٢٥ يأتي الضمير إحالة anaphor حينما يرتبط بمرجع سابق أو لاحق.

٢٦ تنبه العرب إلى هذا الأمر، ولذلك وضعوا قاعدة لعودة الضمير، في انه يعود إلى أقرب مذكور إليه.

٢٧ (FernÃ¡ndez and Cairns ٢٠١٠: ٥٩)

٢٨ (Runner، Sussman، and Tanenhaus ٢٠٠٦: ١٩٥)

٢٩ (Nicol and Swinney ٢٠٠٨: ٨٣-٨٤)

٣٠ (FernÃ¡ndez and Cairns ٢٠١٠: ٢٥٢)

٣١ وهذه من الوسائل التي تستعمل كثيرا في علم النفس لمعرفة كيفية فهم الجمل، وإنتاج اللغة، وتعني تأثر الإنسان في فهم جملة ما (أو كلمة) بمايجاورها من كلمات، فكلما كانت الكلمة القريبة مرتبطة بالجملة فإن فهمنا يكون أسرع وأدق، وكلما كانت أبعد وأكثر انفكاكًا كان الفهم أقل وأضعف.